مناسبة تتويج جلالة الفاروق

رسوم البيعة والتتويج

فى عهد الدولة الفاطمية

للاستاذ محمد عبد الله عنان

يبلغ صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ملك مصر رشده الدستورى فى الثامن والعشرين من شهر يولية القادم . وقد أثيرت بهذه المناسبة مسألة الرسوم والاجراءات التى يحسن اتباعها لاعلان هذا الحادث السعيد ، وافتتاح العهد الجديد بما يليق به من الروعة الملوكية والدستورية .

ومن المقرر أن الدول الملوكية العريقة تتبع فى مثل هذه المناسبة رسومها وتقاليدها الملوكية الخاصة ؛ وقد رأينا كيف أحيطت حفلات التتويج البريطانى بكثير من الرسوم الملوكية القديمة التى يرجع بعضها إلى عدة قرون ؛ ولكن يلاحظ هنا أن الملوكية الانكليزية لبثت منذ قيامها حتى يومنا متصلة الحلقات، يحتفظ العرش بمعظم رسومها وتقاليدها عصرا بعد عصر . أما الملوكية المصرية فقد انقطع سيرها وعفت رسومها منذ الفتح العثمانى زهاء أربعة قرون حتى أعلن المغفور له الملك فؤاد الأول ملكا على مصر فى سنة ١٩٢٢

ومع ذلك فان الملوكية المصرية الاسلامية رسوما وتقاليد عريقة انتهت إلينا منها صور وذكريات باهرة . وقد عرفت مصر الاسلامية هذه الرسوم الملوكية الخاصة منذ استحالت من ولاية خلافية إلى وحدة سياسية مستقلة فى ظل الدولتين الطولونية والاخشيدية اللتين كانتا بالرغم من ولائهما الاسمى للخلافة العباسية تتمتعان ببعض الرسوم والتقاليد الملوكية الخاصة ، مثل صدور البيعة للأمير ، وتحليه بألقاب الامارة وأحيانا بالألقاب الملوكية مثل اتخاذ محمد بن طغج لقب الأخشيد (أى أمير الأمراء) ، أو تمتعه ببعض الامتيازات الملوكية السياسية ، كما فعل الاخشيد حينما اتصل بقيصر قسطنطينية مباشرة فى المكاتبات الدبلوماسية المتعلقة بمصر وغير ذلك ؛ وثانيا حينما غدت مصر خلافة أو دولة مستقلة كاملة السيادة فى ظل الدول الاسلامية المتعاقبة

وقد عرفت الملوكية المصرية رسومها وتقاليدها الراسخة فى ظل الدولة الفاطمية : وكانت هذه الدولة القوية تجنح إلى البهاء والفخامة فى جميع رسومها وتقاليدها . وكانت تولية الخليفة الفاطمى تحاط بطائفة من الرسوم والمواكب الباذخة ؛ ولما قدم المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ ، بعد أن افتتحها قائده جوهر الصقلى قبل ذلك بأربعة أعوام (سنة ٣٥٨ هـ) لم ترتب إجراءات خاصة لاغلانه خليفة أو ملكا على مصر ، لأن المصريين ارتضوه على يد زعمائهم وأعيانهم خليفة وملكا عليهم عند الفتح حينما قدموا خضوعهم لنائبه وممثله جوهر ، وقطع جوهر الدعوة العباسية ، وبدأت الدعوة للخليفة الفاطمى ؛ بيد أنه حينما وصل المعز إلى الاسكندرية فى شعبان سنة ٣٦٢ هـ ، استقبله أعيان مصر وعلى رأسهم قاضيها الأكبر وجددوا له مراسيم الخضوع والبيعة ، وقصد المعز بعد ذلك إلى القاهرة ونزل بالقصر ، وبدأ عهده فى الحكم والولاية فى اليوم الخامس عشر من رمضان ، إذ جلس بالقصر على عرشه الذهبى الذى أعده له جوهر فى الأيوان الجديد ، وأذن بدخول الأشراف ثم الأولياء وسائر وجوه الناس ، وكان القائد جوهر قائما بين يديه يقدمهم إليه فوجا بعد فوج فيأخذون له البيعة والعهد ، وعلى هذا النحو نظمت مراسيم التتويج لأول خليفة فاطمى بمصر

ومنذ عهد العزيز بالله ولد المعز لدين الله تتخذ رسوم التتويج الفاطمية صورها الباذخة ، وكانت هذه الرسوم تجرى أولا فى القصر الفاطمى فى الأيوان الكبير ثم بعد ذلك فى قاعة الذهب التى أنشأها العزيز بالله ، وجددها المستنصر بالله فيما بعد ، وكان بها عرش الخلافة ، وبها يجلس الخليفة أيام المواسم العامة ، ويجلس للركوب يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع ، وبها كان يقام سماط العيدين ، وسماط رمضان للأمراء ، وكانت تعرف أحيانا بقصر الذهب . وكانت مبايعة

الخليفة الجديد تجرى فى حفل عام يرتبه مدبر الدولة أو كبير الوزراء أيا كان لقبه ، وصاحب الباب أو حاجب الحجاب وهو أكبر رجال القصر ، والاسفهسلار أو القائد العام للجيش ، وذلك بالاتفاق مع قاضى القضاة ، وهو فى العرف السياسى أعظم رجال الدولة مقاما ونفوذا

وكان ينادى بالخليفة الجديد عقب وفاة سلفه مباشرة ؛ ولا فرق فى ذلك أن يكون الخليفة الجديد صبياً أو بالغ الرشد ؛ ويقع هذا الاجراء الأول بالقصر أو حيث كانت وفاة الخليفة الذاهب ، ويتولاه أعظم رجال القصر نفوذاً أو قاضى القضاة ثم يعقبه اجراء البيعة العامة بالأيوان الكبير وهو أيضا من منشآت العزيز بالله ، وجرت فيه بيعة الحاكم بأمر الله فابنه الظاهر لاعزاز دين الله ، فابنه المستنصر بالله ، فابنه المستعلى بالله ، فابنه الآمر بأحكام الله . ثم نقل الخليفة الآمر بأحكام الله سرير الملك (العرش الخلافى) من الأيوان الكبير إلى قاعة الذهب ، فحلت مكان الأيوان من ذلك الحين فى إجراء الرسوم الخلافية العظيمة ؛ وكان الاحتفال بالبيعة عاما يشهده رجال الدولة وأكابر الجند والأعيان وأفراد الشعب ، ويبدأ باخذ البيعة للخليفة الجديد قاضى القضاة وأعضاء الأسرة الفاطمية وأكابر رجال الدولة والقصر ، ويسلمون عليه بسلام الخلافة وصيغته « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » ثم يقبلون له الأرض ؛ واذا وافق جلوسه يوم عيد ، خرج الخليفة فى موكبه إلى الصلاة ، كما حدث عند تولية الظاهر لاعزاز دين الله حيث وافق جلوسه يوم النحر (عيد الأضحى) فأخذت له البيعة ، ثم خرج إلى صلاة العيد ، وعلى رأسه المظلة وحوله العساكر ، وصلى بالناس ، ثم عاد إلى القصر ، فكتب بخلافته إلى سائر الأنحاء .

وكان للعرش الفاطمى عدة من الذخائر والآلات الملوكية كانت آية فى الفخامة والبهاء والبذخ ، من ذلك سرير الملك ، أو العرش الذى يجلس عليه الخليفة يوم توليه الملك ، ثم بعد ذلك أيام المواكب والاستقبالات الرسمية . ويقول مؤرخ معاصر فى وصفه : « إن وزن ما استعمل من الذهب الابريز الخالص فى سرير الملك الكبير مائة ألف مثقال وعشرة آلاف مثقال ، ووزن ما حلى به الستر الذى أنشأه سيد الوزراء أبو محمد اليازورى من الذهب أيضاً ثلاثون ألف مثقال ، وأنه رصع بألف وخمسمائة وستين قطعة جوهر من سائر ألوانه . وذكر أن فى الشمسية الكبيرة ثلاثين ألف مثقال ذهباً ، وعشرين ألف درهم مخرقة ، وثلاثة آلاف وستمائة قطعة جوهر من سائر ألوانه وأنواعه ، وأن فى الشمسية التى لم تتم من الذهب سبعة عشر ألف مثقال » وإلى جانب العرش يوجد تاج الخليفة أو التاج الشريف ، وهو تاج يضعه الخليفة على رأسه فى الموكب والأيام العظام ، وبه جوهرة عظيمة تعرف باليتيمة زنتها سبعة دراهم ، وحولها جواهر أخرى دونها ؛ وقضيب الملك ، وهو عود طوله شبر ونصف ملبس بالذهب مرصع بالدر والجواهر يحمله الخليفة بيده فى المواكب العظام ؛ والسيف الخاص ، يحمل مع الخليفة فى المواكب العظام أيضا ؛ وله أمير من أعظم الأمراء يحمله عند ركوب الخليفة ؛ ومنها المظلة التى تحمل على رأس الخليفة عند ركوبه ، وهى قبة فاخرة ملبسة فى أنابيب الذهب ، وحاملها من أعظم الأمراء ؛ والرمح والدواة ، والدرقة ، والخافر ، وهى قطعة من ياقوت أحمر فى شكل الهلال تحمل فى وجه فرس الخليفة عند ركوبه فى المواكب العظيمة ؛ ومنها الأعلام والبنود والسلاح الخاص الذى يحمله الركابية أو الحرس الملكى .

وقد انتهى الينا وصف بعض المناظر الواقعية التى أحاطت بتولية أحد الخلفاء الفاطميين ، وهو الحاكم بأمر الله ولد العزيز بالله ، نقلها الينا مؤرخ معاصر هو عز الملك المسبحى وزير الحاكم وصديقه ونحن نعرف أن الحاكم بأمر الله تولى الملك حدثاً عقب وفاة والده العزيز فى مدينة بلبيس فى ٢٨ رمضان سنة ٣٨٦هـ . يقول المسبحى : « قال لى الحاكم ، وقد جرى ذكر والده العزيز يا مختار ، استدعانى والدى قبل موته ، وعليه الخرق والضماد ، فاستدنانى اليه وقبلنى وضمنى اليه وقال : وأغمى عليك يا حبيب قلبى ودمعت عيناه . ثم قال امض ياسيدى والعب ، فأنا فى عافية

قال ، فمضيت ، والتهيت بما يلتهى به الصبيان من اللعب إلى أن نقل الله سبحانه وتعالى العزيز إليه ، قال فبادر إلى برجوان ، وأنا فى أعلى جميزة كانت فى الدار ، فقال : انزل ، ويحكم الله فينا وفيك ، قال فنزلت ، فوضع العمامة بالجوهر على رأسى وقبل لى الأرض ، وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . قال ، وأخرجنى حينئذ إلى الناس على تلك الهيئة ، فقبل جميعهم لى الأرض وسلموا على بالخلافة ، وقع هذا المنظر بمدينة بلبيس فى ٢٨ رمضان ، وفى اليوم التالى سار الحاكم إلى عاصمة ملكه فى موكب رهيب فخم وأمامه جثة أبيه ، وبين يديه البنود والرايات ؛ وقد ارتدى دراعة مصمت ، وعمامة يكللها الجوهر ، وتقلد السيف وبيده رمح فدخل القاهرة عند مغيب الشمس ؛ وفى الحال أخذ فى تجهيز أبيه ، ودفن عشاء بالقصر . وفى صباح اليوم التالى ، بكر سائر رجال الدولة إلى القصر ، وقد نصب للخليفة الصبى فى الايوان الكبير ، سرير من الذهب عليه مرتبة مذهبة ، وخرج من القصر إلى الايوان راكباً وعلى رأسه معممة الجوهر والناس وقوف فى صحن الايوان ، فقبلوا الأرض ومشوا بين يديه حتى جلس على عرشه ، وسلم عليه الجميع بالإمامة ونودى فى القاهرة والبلدان أن الأمن موطد والنظام مستتب فلا مؤنة ولا كلفة ، ولا خوف على النفس أو المال

هذه لمحة من الرسوم والتقاليد التى كانت تجرى عليها الدولة الفاطمية فى تولية خلفائها ، وهى رسوم ملوكية عريقة يطبعها لون من البذخ الساحر . وقد كانت الدولة الفاطمية ، وهى أولى الدول الاسلامية المستقلة بمصر ، دولة البذخ والبهاء ، وكانت رسومها وتقاليدها فيما بعد مستقى خصبا للدولة الاسلامية التى تعاقبت من بعدها فى عرش مصر (١)

محمد عبد الله عنان

(١) رجعنا فى هذا البحث الى خطط المقريزى ، وصبح الاعشى للقلقشندى وحسن المحاضرة للسيوطى ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، وابن خلكان . الخ

دمـــوع الحب

للأستاذ يوسف البعينى

لتتذوق رحيق الفن ، وتتسلل إلى سراديبه الرهيبة وتعانق غوانيه المعطرة . . يجب أن تقرأ ـ بول فاليرى ـ فقصيدة واحدة من هذا الشاعر العبقرى المجدد حياة فنية منفردة لها ألوانها وخطوطها وأصباغها . جملة صغيرة من ريشة بول فاليرى تعطيك معنى ألذ من تغريدة البلبل ، وأطرب من أنغام الرباب . وأعذب من الأحلام . . أما الحياة التى تلمسها فى سطوره وصوره فتبكى وتفرح ، تشكو وتبتسم . تغرد للصباح الضاحك ، وتكتئب للمساء الحزين ؛ حياة ككل حياة ، لكنها تختلف برموزها وأسرارها . وهذه الرموز والأسرار هى عبقرية الشاعر العظيم والفنان الملهم ؛ هى كائنه الحى الأعلى ؛ هى روحه التى غاصت فى البحر فالتقطت درره ، وتغلغلت فى الليل فاتشحت بازاره . وفى القلوب فاجتنت ميولها وعواطفها وشهواتها .

لقد قرأت أكثر مؤلفاته فتبينت فيها الفن المجنح الذى يفتح عينيك على صور موشاة بجميع ألوان الحياة وأدهنتها الرائعة . وما إن تحدق قليلا بسطر من سطوره حتى تتولاك رحاب الشاعرية ؛ هى غيبوبة بعيدة القرار يشملك بها الشاعر الفنان فيريك بهجة الربيع واخضراره ، ويسمعك عويل الخريف وشكواه . وإن شاعراً يغمرك بكل ماتشتاقه الروح ويحلم به القلب ليعرف من الحياة غير أسمائها ، ويقرأ من الكلمات أكثر من حروفها ، ويبصر فى مشاهد الأعراس والمآتم غير ما يبصره الناس !

* * *

ومن أروع ما طالعته أخيراً لهذا الشاعر الساحر رسالة دعاها ـ دموع الحب ـ قرأتها بروح نهمة تريد أن تتفهم معانى الحياة وتتكشف أسرار الجمال فاذا هى قطعة فنية